أوراق الذاكرة ١

النساء ومهنة الطب في المجتمعات الإسلامية (ق ٧م - ق ١٧م)

د. أميمة أبو بكر

د. هدى السعدي

مؤسسة المرأة والذاكرة

أوراق الذاكرة ١

النساء ومهنة الطب في المجتمعات الإسلامية (ق ٧م - ق ١٧م)

د. أميمة أبو بكر

د. هدى السعدي

مؤسسة المرأة والذاكرة

مؤسسة المرأة والذاكرة مجموعة من الباحثات والباحثين المهتمين بقراءة التاريخ الثقافي العربى من منظور يأخذ فى الاعتبار التشكل الثقافي والاجتماعي للجنسين، والهدف من هذه القراءة هو إعادة التوازن المنشود للذاكرة الجماعية التى تم تشويهها بسبب عملية الإقصاء والاستبعاد التى عانت منها النساء والفئات المهمشة في المجتمع. ولأن هناك حاجة شديدة لخلق تراكم معرفي من الدراسات والأبحاث التي تناول هذه الإشكالية، يصب عمل المؤسسة بصفة أساسية في إنتاج مادة ثقافية متخصصة وأخرى غير متخصصة التي من شأنها إضافة معلومات هامة عن النساء والتاريخ والذاكرة الثقافية والشعبية ولغة الخطاب، ولذا نقدم هذه السلسة التي تساهم بدورها في زعزعة المفاهيم السائدة حول أدوار النساء وعلاقتها بالثقافة، بهدف توفير الأدوات الثقافية الفعالة للمساهمة في إزالة العقبات التي تحول دون نهضة المرأة وحقوقها.

الإصدار : سلسة أوراق الذاكرة (١)
العنـــوان : النساء ومهنة الطب
في المجتمعات الإسلامية (ق٧م - ق١٧م)
تأليـــف : أميمة أبو بكر وهدى السعدي
الناشـــر : ملتقى المرأة والذاكرة، القاهرة - سبتمبر ١٩٩٩ (طبعة أولى)
مؤسسة المرأة والذاكرة، القاهرة - يونيو ٢٠٠٤ (طبعة ثانية)
٤ شارع عمر بن عبد العزيز، المهندسين
رقم الايداع: ٩٩/١١٧١٢
ISBN 977-5895-04-9
طبـــاعة : Promotion Team القاهرة - تليفون : ٣٣٦ ٧٤٤٩
حقـــوق الطبـــع والنشـــر محفـــوظة

النســاء ومهنـــة الطـــب
فـــي المجتـمعـــات الإسلاميـــة
(ق ٧م - ق ١٧م)

لماذا هذا البحث؟

قد يقول قائل فى تعليقه على فكرة هذه الورقة حـــول طبيبـــات الإسلام: "هذا غير وارد، أنتن تكتبن عن شئ غـــير موجـــود تـــردن إيجاده". وهذه العبارة القاطعة تلخص فعلا المشـــكلة قديمـــا وحديثـــا، فتعكس الإحباط الذى يواجه الباحثة فى الوقت الراهن عند التنقيب عـــن مادة تاريخية وافية حول المسلمات فى العصور الأولى والوسطى، كمـــا تعبر عن الانطباع الحديث الذى نتج عن ندرة هذه المـــادة التاريخيـــة وهو أن الأحداث أو الأنشطة إن لم تكن موجـــودة ســـاطعة ومؤكـــدة ومتواترة فى سجلات التاريخ الرسمى فهى إذاً غير هامة وغير جديـــرة بالدراسة ولم تستحق التدوين أصلا. هذه نقطة؛ والنقطة الأخرى: تلـــك المسألة بالتحديد تمثل التحدى الأكبر للمجتهدات فى التاريخ الإســـلامى (وللمدرسة التاريخية النسوية بصفة عامة)، المهتمات بدراســـة مكانـــة المرأة فى المجتمعات الإسلامية وتحليل التصورات الثقافية والخطابـــات حول دورها فى الحياة. ونحن نرى أن هذه العملية ضروريـــة حتـــى يتسنى لنا تتبع التغيرات التى تطرأ على النظرة إلى النســـاء وعملـــهن واشتراكهن فى مجالات الحياة المتنوعة، والمقارنة بالنموذج المرجعـــى لتعاليم الإسلام. وفى النهاية قد نكون فعلاً نريد إيجاد شئ غير موجـــود وهو تَفعيل الوعى التاريخى لدى النساء خاصة، لتعزيز الشعور بأنـــهن قد شاركن فى صنع الماضى بكل سعة ممكنة وعلى مستويات متعـــددة. إن إضافة هذا البعد التاريخى والثقافى لدراسة موضوع النســـاء فـــى الإسلام (إلى جانب الدراسات النظرية عن تعاليم القرآن والسنة النبويـــة فيما يخص المرأة المسلمة) من شأنه أن يلفت النظر إلى معنى تطـــور التشكيل الاجتماعى والثقافى لأدوار النســـاء والرجـــال عـــبر الحقـــب

الزمنية المختلفة، وإلى فعاليات موازين القوة فى الواقع وفى تدوين التاريخ واستدعائه.

هل كان هناك طبيبات احترفن المهنة بالفعل فى التاريخ الإسلامى؟ وماذا تعنى الإجابة لنا الآن كنساء؟ والشق الثانى من السؤال: هل برزت طبيبات بعينهن وهل تركن آثاراً نعرفها؟ ومرة أخرى ماذا تعنى الإجابة على هذا السؤال لنساء المجتمعات الإسلامية الآن؟ نحاول هنا تحقيق هدفين شاملين: أولا، إعادة تكوين صورة النساء المشتغلات بفروع الطب المختلفة لإبراز الموضوع وتأطيره وإعطائه مركزية لم ينلها؛ ثانياً، وضع هذه الصورة التاريخية فى إطار تحليلى جديد لا يأخذ بالفرضية الاستشراقية القائلة بأن المرأة المسلمة لابد وأن تكون مقهورة فى كل زمان ومكان بحكم المرجعية الدينية القاهرة، ولا يسلم بأن العراقيل لم توضع فى طريقها وأن الخطابات لم تنشأ لتبرير الاستهانة بها وتحجيم دورها فى الحياة. وقبل الحديث عن النساء ودورهن نود أن نعطى القارئ نبذة سريعة عن الطب الإسلامى بوجه عام مع عرض لأهم مصادر **البحث**.

دراسة المصادر:

اعتمدنا فى إعداد هذا البحث على عدد **من** المصادر والمراجع والدوريات العربية والأجنبية، وسوف نقصر حديثنا على عرض لأهم المصادر الأساسية والمراجع. وتأتى فى المقدمة كتب الطبقات وأقدم ما بين أيدينا منها كتاب الطبقات الكبيرة لابن سعد (المتوفى سنة ٢٣٠هـ/٨١٥م) ، والذى عالج فيه الأرستقراطية العربية وقسمهم إلى مجموعات تبعا لطبقة كل فرد منهم فى الدولة الاسلامية سواء كان من الصحابة أو التابعين. وترجع أهمية هذا العمل بالنسبة لبحثنا الى أن ابن سعد أفرد جزءا كاملا خصصه لمشاهير النساء ممن كن مقربات من الرسول والخلفاء الراشدين. وقد استطعنا أن نستخلص عددا لا بأس به من النساء اللاتى شاركن فى مجال الطب من هذا الجزء الخاص بالنساء، غير أن ذلك لم يكن بالأمر اليسير حيث إن المعلومات التى تناولت النساء والعمل الطبى جاءت متناثرة متفرقة عبر صفحات هذا الجزء من كتاب ابن سعد، هذا فضلا عن أن العمل توقف عند

بداية القرن الثالث الهجرى/ الثامن الميلادى حينما توفى المؤلف، ولـذا كان علينا البحث عن مصادر أخرى لسد النقص فى الفترات الزمنيـة اللاحقة.

وإلـى جـانب كتـاب ابـن سعد هناك كتب طبقات أخـرى أفادتنا إفادة كبيرة فى بحثنا هذا، مثل كتاب أسد الغابـة فـي معرفـة الصحابة لابن الأثير (المتوفـى سـنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) وكتـاب الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر العسـقلانى (المتوفـى سـنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) وقد سار هذان العملان على نفس نهج كتاب ابـن سعد حيث أفرد كل واحد منهما جزءا خاصا من العمل لمشاهير النسـاء من الصحابيات والتابعيات. ولابن حجر عمل آخر وهو كتاب الـدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ويعتبر هذا الكتاب مـن أشـهر كتـب التراجم التى ظهرت فى القرن التاسع الهجري/الرابع عشر الميـلادى. وكتب التراجم بوجه عام تتناول شخصيات متنوعة من ملوك وسلاطين ووزراء وكتاب وقواد جيوش وعلماء وفلاسفة وشعراء وفقهاء وأدبـاء وغيرهم ممن كان لهم آثار واضحة على مجتمعاتهم حيث أن المـؤرخ غالبا ما يترجم للشخصيات البارزة فى بلد معين أو فى قـرن محـدد. وابن حجر فى عمله هذا اختار مشاهير المائة الثامنة للهجرة ليـترجم لهم فترجم لخمسة آلاف ومائتين وأربعة ممن عاشوا فى هـذا القـرن. من ضمنهم عدد من التراجم لمشاهير النساء غير أننا لم نجد فى تراجم النساء هذه أى شئ يشير إلى أن واحدة منهن مارسـت مهنـة الطـب ولكن وجدنا أحيانا ذكرا لدور طبيبة فى معرض ترجمة لشخص آخـر مثل أن تكون أمه أو أخته أو ابنته.

ولكى نقوم بتغطية شاملة لكتب الطبقات والتراجم التى تنـاولت النساء بالدراسة كان لزاما علينا أن نبحث فـى كتـاب تـاريخ بغـداد للخطيب البغدادى (المتوفى ٤٦٣هـ/١٠٧٣م) والذى أفرد فيه جـزءا خاصا بنساء بغداد. وقد كان يحدونا الأمل عندما بحثنا فى هذا الكتـاب أن نجد إحدى نساء بغداد تكون قد شاركت فى مهنـة الطـب ولكـن الخطيب البغدادى أهمل دور النساء فى هذا المجال وركز فقـط علـى دورهن فى الحياة السياسية والدينية وأعمال الخير.

ولتغطية أخبار النساء فى المجتمع الإسـلامى كـان لابـد أن نتطرق إلى نساء المغرب العربى ونحاول معرفة دورهن فـى مجـال

الطب. وهناك عدد كبير من كتب التراجم الخاصة بهذه المنطقة حيث أن كتاب المغرب العربى اهتموا اهتماما كبيرا بتجميع تراجم وسير أشرافهم ومشاهيرهم مهتمين بإثبات نسبهم العربى بسبب اصطدام العنصرية العربية بعناصر بربرية وصقلبية. ويعتبر كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر (المتوفى سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٣ م) من أشهر كتب تراجم هذا الاقليم. غير أن هذا الكتاب لم يفرد جزءا خاصا بمشاهير النساء ولكن جاءت تراجم النساء فيه متداخلة مع تراجم الرجال فضلا عن كونها قليلة جدا فى العدد. وبفحص تراجم النساء هذه لم نجد أى معلومة عن كون أى واحدة منها طبيبة ولكن وجدنا فى تراجم الرجال ذكرا لاثنتين النساء عملن فى مجال الطب ونلن شهرة واسعة فى بلاد الأندلس والمغرب العربى.

وإلى جانب كتب الطبقات والتراجم العامة هناك كتب طبقات متخصصة اهتمت بتدوين تاريخ أعضاء مهنة معينة أو صنعة معينة؛ مثال على ذلك الكتب التى تخصصت فى طبقات الأطباء والتى من أشهرها كتاب عيون الأبناء في طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (المتوفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٧٠ م) وكتاب طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (المتوفى أواخر القرن الرابع الهجرى/التاسع الميلادى) وكتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى (المتوفى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨ م). وهذه الكتب الثلاثة على الرغم من أهميتها للباحث فى مجال الطب والأطباء فى العالم الاسلامى إلا إنها تجاهلت تماما دور المرأة فى هذا المجال فلم يأت فى هذه الكتب الثلاثة سوى ذكر لامرأة واحدة مارست مهنة الطب ضمنها أبن أبى أصيبعة ضمن تراجم أطبائه. وهذا العزوف عن التأريخ الوافى للنساء يجب الوقوف عنده ومعرفة أسبابه. هل هو إهمال عن غير قصد أم تجاهل عن عمد ومحاولة لتصغير دور المرأة وشانها فى المجتمع؟ بوجه عام لم يبدأ التأريخ للأطباء فى المجتمع الاسلامى إلا فى العصور الوسطى خاصة الفترة التى ساءت فيها أحوال الأمة الإسلامية وانتشر التحرر من الضوابط الأخلاقية الأصلية، وقد أنعكس هذا على وضع النساء حيث أن المجتمع قام بوضع المحاذير حول المرأة وعمل على عزلتها خوفا مما قد تتعرض له من المفاسد وسدا للذريعة، وأيضا كرد فعل لهذا الفساد والتسيب الاخلاقى المتزايد فى المجتمع ولذا جاء دورها فى

كتابات الرجال فى هذه الفترة محدودا للغاية إن لم يكن نادرا.[1] هنـــاك تفسير آخر تذكره الكاتبة روث روديد فى كتابـــها المـــرأة فـــي كتـــب الطبقات الإسلامية عن هذا الموضوع حيـــث قـــالت إن المـــرأة فـــى العصور الاسلامية الوسطى ظهرت بصورة جلية على مسرح الأحداث السياسية وتدخلت فى شئون الحكم بل أن بعضهن حكمن بـــالفعل وقـــد كان حصول المرأة على هذه السلطة السياسية وسيطرتها على مقـــاليد الحكم مستفزا لبعض الحكام والمؤرخين الذين قاموا بعزل المرأة مـــن كتاباتهم أو بتقليص دورها فى مختلف المجالات كرد فعل لهذا الوضـــع الجديد الذى رأوا أنه مخالف لتقاليد الاسلام وتعاليمه.[2] ولنا فى الجـــزء الأخير من هذه الورقة تعليق آخر على هذه النقطة.

وبالإضافة إلى كتب الطبقات المتخصصة وغير المتخصصـــة هناك كتب التاريخ العامة التى من أهمها كتاب تاريخ الرسل والملـــوك للطبرى (المتوفى سنة ٣١٠هـــ/٩٢٢ م). وفى هـــذا الكتـــاب يتنـــاول الطبرى أخبار البشر من عهد آدم حتى عصره، ومرتبة ترتيبا زمنيـــا. لقد قدم لنا هذا الكتاب مادة علمية واسعة عـــن أحـــداث القـــرن الأول والثانى للهجرة واستطعنا أن نتعرف من خلاله على وضع المرأة بوجه عام فى هذا المجتمع وهو الأمر الذى كان ضروريـــا للتعـــرف علـــى تطور انخراط النساء فى حياة الجماعة والحياة المهنية العامة.

وتمثل كتب الحسبة أهمية خاصة فهى من أهم مصادر الـــتراث الحضارى وتصـــور بدقة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والمهنية فـــى العصور الإسلامية مثل كتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابن بســـام المحتسب وكتاب نهاية الرتبة في طلب الحسبة لابـــن عبـــد الرحمـــن الشيرازى وكتاب الحسبة في الإسلام لابن تيمية وكلـــها كتـــب أمدتنـــا

---

[1] Huda Lutfi, "Al-Sakhawi Kitab al-Nisa as a Source for the Social and Economic History of Muslim Women during the Fifteenth Century A.D.", The Muslim World, LXXI (1981), p. 105.

[2] Ruth Roded, Women in Islamic Biographical Collections from Ibn Sa'd to Who's Who, (Boulder & London: Lynne Rienner Publishers, 1994), p.121.

بمعلومات هامة جدا وقيمة عن طبيعة مهنـــة الطـب فـى المجتمـع الاسلامى وأصول ممارستها.

والى جانب كل هذه المصادر هناك كتاب الأغاني للأصفـهانى وهذا الكتاب مثير للاهتمام فهو كتاب موسيقى وغناء وطرب وقد ترجم مؤلفه لأكثر المغنيين والمغنـيات المشهورين فـى صـدر الإسـلام والدولتين الأموية والعباسية غير إننـا وجدنـا أن بعـض المغنيـات المشهورات عملن فى مجال الطب وخاصة الطب النسـوى (الـولادة والقيالة).

ومن كل ما سبق ذكره نلاحظ أنه علـى الرغـم مـن كـثرة المصادر عن الطب والأطباء إلا أن المعلومات الخاصة بدور المـرأة فى مهنة الطب كانت قليلة ومتناثرة ولذا كان علينا بذل مجهود كبـير لتجميع هذه المعلومات ومحاولة استنباط ما بين السـطور مـن أجـل الحصول على صورة حقيقية لدور النساء فـى مهنـة الطـب ولكـى نستشف بقدر الإمكان وضعهن وظروفهن فى ظل هذا العمل وتصـور المجتمع لهن.

ومثلما كان الحال مع المصادر كان الحال أيضا مع المراجـع فهناك مراجع كثيرة تناولت الطب الاسلامى وحياة الأطبـاء وطـرق ممارستهم لمهنة الطب غير أن هذه المراجع لم تذكر دور المرأة فـى هذا المجال سوى بطريقة عابرة وسطحية فى سطور قليلـة ينقصـها التحليل والتدقيق فى مسألة دور المرأة المطموس فـى هـذا التـاريخ ومسألة التوزيع غير المتكافئ فى إتاحة الفرص التعليميـة والمهنيـة. وأملنا أن نسد هذه الثغرة أو نفتح الباب تجاه هذا السبيل ونحقق الفـائدة المرجوة التى تحتاجها المكتبة التاريخية الإسلامية.

نشأة الطب الإسلامى :

كان للعلوم الطبية مكانة خاصة فى الإسلام حيث أن الرسـول (صلى الله عليه وسلم) كان دائماً يحث الصحابة على البحث عن الشفاء بوسائل العلاج والتطبب المعروفة، مما شجع المسلمين على وضع علـم

الأبدان فى مصاف واحد فى أهميته مع علم الأديان،[1] وهكذا أهتم المسلمون بصناعة الطب اهتماماً كبيراً فتسابقوا لدراسة الطب بكل نظرياته وقوانينه وأصوله العملية والنظرية، ومنذ بداية الإسلام وحتى اليوم نجد أن تاريخ الدولة الإسلامية حافل بأسماء أطباء عظام خدموا دولتهم والعالم أجمع وأسماؤهم ما زالت تتردد حتى اليوم فى الأوساط الطبية فى الشرق والغرب. ولكن مثلما كان هناك عدد كبير من الأطباء المشهورين كانت هناك أيضاً طبيبات مسلمات شاركن فى مهنة الطب منذ بداية الإسلام وكن جزءاً من تطورها وتدرج أطوارها. غير أن هؤلاء الطبيبات لم ينصفهن التاريخ بل تجاهل دورهن ووجودهن ولذلك رأينا لزاماً علينا أن نظهر دور هؤلاء الطبيبات ونوضح مدى مشاركتهن فى الحياة الطبية فى الدولة الإسلامية. ولكن قبل الدخول فى أية تفاصيل عن حياة هؤلاء الطبيبات أو تحليل البيانات الخاصة بهن، نود أن نقدم للقارئ نبذة سريعة عن مهنة الطب فى المجتمع الإسلامى بوجه عام.

الطب، علم الأبدان، "العلم الحافظ للصحة الموجودة والراد للصحة المفقودة"،[2] يعتبر من أكثر العلوم التى أولاها المسلمون رعايتهم واهتمامهم. وقد بدأ اهتمام المسلمين بهذا العلم منذ بداية عهد الإسلام حينما كان الرسول، كما ذكرنا سابقاً، يحث المسلمين على دراسة الطب والتخصص فيه. ومن أجل دراسة هذا العلم دراسة مستفيضة اتجه المسلمون الأوائل إلى قراءة التراث الطبى اليونانى والفرعونى والهندى والبابلى وقد كان للتراث الطبى اليونانى أكبر الأثر على الأطباء المسلمين حيث أن حضارة اليونان تعتبر من أكثر حضارات العالم ثراءً فى الإنتاج الطبى.[3] عكف الأطباء المسلمون على دراسة التراث الطبى اليونانى باجتهاد فقاموا بقراءته كله وترجمته ترجمة تفصيلية ثم أضافوا إليه خلاصة تجاربهم

[1] ابن القيم الجوزية، الطب النبوى، تحقيق محمد فتحى أبو بكر، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٤)، ط٢.

[2] ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى، عيون الأبناء فى طبقات الأطباء، شرح وتحقيق د. نزار رضا، (بيروت: دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ)، ص٧.

[3] Muhamed Zubayr Siddiqi, Studies in Arabic and Persian Medical Literature, (Calcutta, 1959), see the Introduction.

وترجمته ترجمة تفصيلية ثم أضافوا إليه خلاصة تجاربهم وملاحظاتهم العلمية الدقيقة وأخرجوا نظريات طبية جديدة ما زال العالم يتحدث عن عظمتها حتى اليوم.[1]

وبسبب أهمية كتب التراث الطبى اليونانى كان من الواجب على طالب الطب أن يبدأ دراسته بقراءة أشهر كتبها مثل كتب أبقراط وجالينوس. ثم بعد ذلك كان الطالب ينتقل إلى كتب مشاهير الأطباء العرب ولقد كان الطالب يعتمد أساساً على أسلوب الحفظ عن ظهر قلب، وكانت فكرتهم فى ذلك تقوم على أساس أن الحفظ يحفظ المادة العلمية عبر السنين فى حالات ضياع أو تلف الكتاب أو المصدر.[2] ولم يكن هناك منهج محدد أو كتب معينة يجب أن ينتهى الطالب من دراستها حتى ينال الإجازة ولكن كان كل أستاذ يعطى الطالب الإجازة وفقاً لتقديره وبوجه عام لم تتطلب دراسة الطب السفر والترحال الكثير مثلما كانت تقتضى دراسة العلوم الدينية. وربما كان هذا من العوامل التى يسرت هذا المجال للمرأة فى المجتمع المسلم.

كانت هناك ثلاثة طرق رئيسية يستطيع من خلالها طالب الطب أن يحصل على الإجازة ويصبح طبيباً ممارساً للمهنة:

أ - دراسة الطب فى المستشفيات حيث كان الطالب يتدرب على مهنة الطب تدريباً عملياً فيقضى وقته مع المرضى يتابع حالاتهم المختلفة وتطورات أمراضهم. وإلى جانب الدراسة العملية كان هناك جانب نظرى لدراسة الطب فى المستشفيات حيث أن معظم المستشفيات فى العالم الإسلامى كانت تحتوى على قاعات للمحاضرات ومكتبات كبيرة.

ب - دراسة الطب فى مدارس خاصة متخصصة: غالباً ما كان يقوم أطباء مشهورون بإدارة مثل هذه المستشفيات.

---

[1] Michael Dols, Medieval Islamic Medicine, (California: University of California Press, 1984), the Introduction.

[2] Ibid, p. 30.

ج – طريقة التدريس الخصوصى: وهى حينما يلازم طالب واحد أو طالبان على الأكثر طبيبا مشهورا للتعلم منه، وغالباً ما يلازم الطالب أستاذه فى العيادة والمستشفى والزيارات المنزلية، يتعلم منه طريقة فحص المريض وتشخيص الأمراض. وفى كثير من الأحيان يكون الأب هو الأستاذ أو المعلم الخصوصى لابنه أو لابنته حيث أن توارث مهنة الطب بين أبناء الأسرة الواحدة كان أمراً شائعاً فى العصور الإسلامية الأولى والوسطى.[١]

وإلى جانب هذه الطرق الرئيسية فى تعلم الطب كانت هناك طريقة تعلم الطب بالممارسة والخبرة العملية بدون دراسة رسمية أو منهجية وقد ذكر "جواتيين" فى كتابه مجتمع البحر المتوسط أن عدداً كبيراً من نساء اليهود مارسن هذا النوع من الطب العملى فلم يدرسن فى مدارس أو يتعلمن فى مستشفيات وإنما اكتسبن الخبرة فى هذا المجال بالممارسة. وهذا النوع من الطبيبات كن ينتمين للطبقة الفقيرة والمتوسطة بأعداد غير قليلة.[٢] ومن الممكن لهذه الظاهرة أن تتسحب على بقية أفراد المجتمع العربى المسلم فى ذلك الوقت حيث أن اليهود عاشوا وعملوا داخل الدولة العربية الإسلامية وتحت رايتها وفى ظل نظامها الاجتماعى والمهنى العام. إلا إنه رغم وجود عدد كبير من النساء المسلمات الممارسات لطب العامة فى هذه الطبقات، هناك أدلة على وجود عدد لا بأس به من الطبيبات اللاتى درسن من خلال القنوات الرسمية وفى سياق مجتمع الصفوة،

---

١ Dols, Medicine, pp. 36-38.

٢ S. D. Goitien, A Mediterranean Society, vol. 1, (California: University of California Press, 1971), p. 128.
تحدث جواتيين بالتفصيل عن الطبيبات بالممارسة وأوضح كيف أن الطبيبة كانت شخصية محترمة محبوبة في المجتمع لها تأثير إيجابى على الطبقات الفقيرة التي كانت تنتمى إليها وتخدمها. وكان يطلق عليها لقب "طبيبة" وهي صيغة تصغير توحى بالحب والتدليل مما يدل على مكانتها الخاصة بين أفراد المجتمع.

وتعلمن على أيدى كبار الأطباء مثل القوابل اللاتى تعلمن الطب من الطبيب الأندلسى المعروف الزهراوى وعملن مساعدات له.[1]

وبعد أن ينتهى الطالب من دراسة الطب بأى من الطرق السابقة الذكر يبدأ فى ممارسة المهنة مباشرة فى المستشفيات والعيادات أو فى بيوت المرضى. ويزور الطبيب المريض الغنى فى بيته حيث أن الأغنياء فقط كانوا قادرين على جلب الأطباء لعلاجهم فى بيوتهم بينما يذهب أبناء الطبقة المتوسطة والفقيرة إلى المستشفيات للعلاج حيث كان العلاج بالمجان. ويعتبر المؤرخون أن "خيمة رفيدة" – إحدى المسلمات الأوليات – أول مستشفى فى الإسلام وقد كان يتم فيها تضميد جروح المسلمين وعلاجهم فى الحروب. وبعد هذه البداية التى وضعت أساسها امرأة فى المجتمع الإسلامى الأول بدأ المسلمون يهتمون بالمستشفيات وعملوا على تطويرها وازدهارها فى العصور التى تلت. وقد ذكر لنا المؤرخ أحمد عيسى فى كتابه تاريخ البيمارستانات أن طبيبة تعرف بإسم ابنة شهاب الدين الصائغ كانت تعمل بدار الشفاء المنصورى، أكبر مستشفى فى مصر فى العصور الوسطى وكان لها دور بارز فيه.[2] وسنتحدث فيما بعد عن هذه الطبيبة بالتفصيل .

وإلى جانب عمل المرأة فى المستشفيات عملت المرأة أيضاً فى العيادات وقامت بزيارات منزلية لمداواة مرضاها مثلها مثل الرجال، فقد ذكر الطبرى فى كتابه تاريخ الرسل والملوك أن "أبو الحسن المتطبب بباب المحول قال: جاءتنى امرأة ... فقالت لقد طفت لعلاج جرحى فوصفوا لى هذا المكان أريد أن تعالج شيئاً فى كتفى قلت لها: أنا كحال وههنا امرأة تعالج النساء وتعالج الجراحات فانتظرى مجيئها

---

[1] عبد العزيز اللبيدى، تاريخ الجراحة عند العرب، (عمّان: دار الكرمل للنشر والتوزيع، ١٩٩٢)، ص١٨٢.

[2] Ahmad Issa, Histoire des Bimaristans a l'Epoque Islamique, (Le Caire: Imprimerie Paul Barbey, 1928), p. 165.
قام احمد عيسى في كتابه بتغطية شاملة لتاريخ المستشفيات في الإسلام – ظهورها وتطورها ونظام العمل بها وأهميتها كمكان تعليمي وعلاجي.

فقعدت فقمت معها إلى المتطببة لما جاءت أوصيتها بها فعالجت جرحها وأعطتها مرهما".[1] و "هذا المكان" الذى يتحدث عنه الطبرى هنا هو مثل العيادة العامة بها تخصصات كثيرة من ضمنها هذه الطبيبة الجراحة التى تعمل فى نفس المكان مع الأطباء الرجال ويرشحها الرجال لمن يحتاج الى جراحة. أما عن زيارات المرأة الطبيبة لمرضاها فى البيوت فقد كانت كثيرة حيث إن القوابل والعاملات فى مجال النساء والولادة كن يقمن بعملهن هذا فى البيوت. وقد تحدث ابن الحاج فى كتابه المدخل الذى جاء فيه تسجيل لبعض جوانب حياة النساء فى القاهرة المملوكية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلادى، عن كيف كان الناس يستقبلون القوابل فى بيوتهم والترتيبات التى كانت تقوم بها القابلة استعداداً لذهابها الى بيت الحامل والمهام الخاصة بالتوليد ورعاية الأم والطفل بعد الولادة.[2]

وبعد أن عرضنا الأماكن التى كان يمارس فيها الطبيب أو الطبيبة مهنة الطب نود أن نعرض أساليب العلاج وطرق المداواة التى كانت متبعة فى هذه العصور. وقد لاحظنا أن المؤرخين لم يقدموا لنا وصفاً دقيقاً لطرق علاج المرضى فى هذه الفترة المعنية وقد يكون السبب فى هذا أن طرق العلاج نفسها لم تكن دقيقة، فنجد مثلا أن ابن أبى أصيبعة أشهر من أرخ للأطباء لم يعطنا وصفاً دقيقاً لكيفية تشخيص الأمراض ومداواتها أو أى تفاصيل للأدوية المركبة وطرق تركيبها، ولكننا علمنا من كتب الحسبة معلومات عن بعض الممارسات الجراحية التى مارسها الأطباء فى العصور الإسلامية الأولى والوسطى والتى كان من أشهرها وأهمها أسلوب الكى والفصد

---

[1] أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى، تاريخ الرسل والملوك، (بيروت: مطبعة عز الدين، ١٩٩٢)، ج١٠، ص٣٨٣-٣٨٤.

[2] أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الصدرى الخامس المالكى، ابن الحاج، المدخل، (المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٢٩)، ص٢٨١-٢٩٦. وعلى الرغم من رؤية ابن الحاج الانتقادية لكثير من الممارسات فى عصره بما فيهم القوابل، إلا أن الكتاب يشكل مصدراً تاريخياً ثرياً لتفاصيل وأسلوب الحياة فى المجتمع القاهرى المملوكى.

والجحامة.[1] وإلى جانب هذه الإجراءات الجراحية البسيطة عرف الأطباء فى هذه العصور العمليات الجراحية المعقدة مثل جراحات البطن والفتق والدوالى والبواسير والنواصير، كذلك عرفوا جراحات المسالك البولية وجراحات النساء والجراحات الخاصة بالأطفال، هذا كله فضلاً عن جراحات الأورام والعظام وجراحات الحروب.[2] ولكن على الرغم من تطور أساليب الجراحة وتنوعها إلا أن الأطباء فى هذه العصور كانوا يفضلون تجنب التدخل الجراحى ويحاولون معالجة المرضى بالأدوية والعقاقير. وقد كان للمرأة نصيب كبير فى مجال الجراحة وسنرى فيما بعد كيف أن الجراحات بوجه عام – وعلى غير ما نتوقع أو نعرف – كانت من المجالات التى اشتغلت فيها أيضاً المرأة الطبيبة، إلى جانب القبالة والتوليد والكحالة والعيون.

أما بالنسبة للأدوية والعقاقير كان الأطباء فى هذه العصور يهتمون بدراسة أنواع العقاقير المختلفة ويحاولون إعداد وتجهيز أنواع مختلفة من الترياق والدواء. وفعلاً نجح الأطباء المسلمون فى القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى فى اكتشاف وإعداد ثلاثة آلاف نوع من الدواء لم تكن معروفة لغيرهم من الأطباء فى البلدان الأخرى.[3] ولقد كانت هناك ثلاث فئات فى المجتمع مرتبطة بإعداد الأدوية والعقاقير:

١- الشرابين: يبيعون عقاقير عبارة عن سوائل غالباً ما تصنع من العسل.

٢- العطارين: يبيعون الأعشاب الطبية المختلفة وإلى جانبها يبيعون العطور والبهارت.

---

[1] محمد بن أحمد بن بسام، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السامرائى، (بغداد: مطبعة العارف، ١٩٦٨)، ص١٠٨-١١٨.

[2] اللبيدى، تاريخ الجراحة عند العرب، ص١٥٥-٢٣٤.

[3] Amin A. Khayrallah, Outline of Arabic Contribution to Medicine, (Beirut: American Press, 1946), p. 150.

٣- الصيادلة المتخصصين: على علم كبير بصناعة وحفظ الأدوية والعقاقير البسيطة والمركبة.[١]

ومن المؤكد أن النساء عملن فى مجال تركيب الأدوية ، حيث تقابلنا تفاصيل عارضة عن استخدام النساء لقطرات أو مراهم **قمن بتركيبها** مثل الطبيبة السالفة الذكر فى الطبرى وزينب بنت بنى أود (ستأتى لاحقا) والتى كانت تكحل من به رمد فتعالجه، كذلك ذكرت لنا المصادر أن ابن سينا كان يستخدم قطرة بطب العيون ركبتها امرأة خبيرة بصناعة الطب.[٢] كما نقرأ أيضاً عن ست الشام خاتون وهى شقيقة توران شاه (من ملوك بنى أيوب)، المتوفية سنة ٦١٦هـ، فكانت تتبنى وتشرف على "تصنيع بدارها أشربة وسفوفات وعقاقير بمبلغ عظيم ليفرق على الناس."[٣]

وترتبط مهنة الطب فى المجتمعات الإسلامية بوظيفة "المحتسب" وهو الموظف المختص بضبط الأخلاق العامة والإشراف عليها فى الدولة الإسلامية، "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر."[٤] وكان المحتسب يشرف على جميع المهن فى المجتمع بما فيها مهنة الطب والصيدلة، وكان يشترط على الطبيب أن يأخذ قسماً قبل الحصول على الإجازة لممارسة المهنة ويتأكد من قدرة الطبيب على تشخيص المرض والعلاج: "يطلب سائر الأطباء بما شرحه يوحنا بن ماسويه المتطبب فى كتابه المعروف بـ محنة الطبيب فمن وجده قيماً بجميع ما حوته شروطه فصلاً فصلاً آمره فى معيشته ومن كان بضد ذلك صرفه عن هذه المعيشة ويمضى فى الدروس فيلزم قراءة الكتب

---

[١] Sami Khalaf Hamarnah, Health Science in Early Islam, (Texas: Zahra Publications, 1984), vol. 1, pp. 119-120.

[٢] أسعد داغر، حضارة العرب، (مصر، ١٩١٨)، ص١٩٢.

[٣] صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، الوافى بالوفيات، (إستانبول: مطبعة الدولة، ١٩٣١)، ج١٥، ص١١٩.

[٤] أبو العباس أحمد بن تيمية، الحسبة فى الإسلام، (مطبعة المؤيد، ١٩٠٠).

قبل انتصابه لمداواة الناس لما فى ذلك من الضرر الواقع بـــللمرضى".[1] وقد دون المحتسبون فى كتاباتهم أصول مهنة الطب وشروط ممارستها وعلاقاتهم المباشرة بالأطباء وعلى رأسهم شيخ الأطباء أو – رئيـــــس الأطباء – الذى كان يتولى هذا المنصب بتعيين من المحتسب.[2]

وعلى الرغم من أن المحتسب ذكر تفاصيل دقيقة عـــن مهنـــة الطب إلا أنه لم يذكر شيئاً عن المرأة الطبيبة ولكن فى أغلب الظـــن أن المحتسب حينما تحدث عن الطبيب كان يقصد أى شخص يمارس مهنة الطب رجلاً كان أو امرأة فمن المؤكد أنه كانت هناك علاقة مباشـــــرة بين المحتسب والمرأة الطبيبة حيث أن المحتسب كان يشـــــرف علـــى مهنة الطب بكل تخصصاتها بما فيها مجال النسا والولادة الـــذى كـــان مليئاً بالنساء طبيبات وقوابل وممرضات.

النساء الطبيبات فى التاريخ الإسلامى:

بعد رصد الطبيبات التى جاء ذكرهن فى المصادر التاريخيـــة المختلفة فى كتب الطبقات والتراجم والسير والتاريخ العام تمكننا مـــن حصر أربعة وعشرين اسماً لنساء ساهمن فى مجال الطب والعلاج وتم إدراجهن فى السجلات التاريخية على اعتبار أنهن طبيبـــات أو لـــهن إسهامات تستحق الذكر. وعند ترتيب البيانات الخاصة بهن فى شـــكل جداول، حصلنا على صورة عامة ولكن أيضا مركزة لطبيعة وظـــروف هذه الفئة من نساء المجتمعات الإسلامية المبكرة.

والجدول التالى يعرض أسماء هؤلاء الطبيبات والمصادر التـــى تحدثت عنهن :

---

[1] ابن بسام، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، ص١٠٨.

[2] Hamarnah, Health Sciences, vol. 1, pp. 119-120.

جدول رقم (١)

م	الطبيبـــــات	المصـــــادر
١	رفيدة الإسلامية	أسد الغابة لابن الأثير الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر
٢	الربيع بنت معوذ الأنصارية	الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر
٣	أمية بنت قيس الغفارية	أسد الغابة لأبن الأثير
٤	سلمى أم رافع	الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر
٥	معاذة الغفارية	أسد الغابة لابن الأثير
٦	كعيبة الإسلامية	كتاب الطبقات الكبير لابن سعد
٧	ليلى الغفارية	الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر
٨	أم العلا الإنصارية	أسد الغابة لابن كثير
٩	أم عطية الإنصارية	أسد الغابة لابن الأثير كتاب الطبقات الكبير لابن سعد
١٠	فريدة الكبرى	الأغاني للأصفهانى

تابع جدول رقم (١)

م	الطبيبـــــات	المصـــــادر
١١	زينب طبيبة بنى أود	طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة
١٢	خرقاء العامرية	الأغانى للأصفهانى
١٣	سلامة القس	الأغانى للأصفهانى
١٤	حبابة	الأغانى للأصفهانى
١٥	متيم الهامشية	الأغانى للأصفهانى
١٦	رحاص	الأغانى للأصفهانى
١٧	محبوبة	الأغانى للأصفهانى
١٨	فضل جارية المتوكل	الأغانى للأصفهانى
١٩	أم أسية القابلة	حسن العقبى لابن الداية
٢٠	أم أحمد القابلة	تحفة الأحباب للسخاوى
٢١	أخت أبو بكر بنت زهر وابنتها	الاستيعاب لابن عبد البر
٢٢	جارية أبى عبد الله الكنان	البيان المغربى لابن عذارى
٢٣	أم الحسن بنت القاضى	الدرر الكامنة لابن حجر
٢٤	ابنة شهاب الدين الصائغ	خلاصة الأثر للمحبى

جدول رقم (٢)

م	الطبيبـــــــة	تاريخ الميلاد/الوفاة	الميلاد/الإقامة
١	رفيدة الإسلامية	عصر الرسول	المدينة
٢	الربيع بنت معوذ الأنصارية	عصر الرسول	المدينة
٣	أمية بنت قيس الغفارية	عصر الرسول	المدينة
٤	سلمى أم رافع مولاة الرسول	عصر الرسول	المدينة
٥	معاذة الغفارية	عصر الرسول	المدينة
٦	كعيبة الإسلامية	عصر الرسول	المدينة
٧	ليلى الغفارية	عصر الرسول	المدينة
٨	أم العلاء الأنصارية	عصر الرسول	المدينة
٩	أم عطية الأنصارية	عصر الرسول	المدينة
١٠	فريدة الكبرى	العصر الأموى	الحجاز ثم الشام
١١	زينب طبيبة بنى أود	العصر الأموى	الشام
١٢	خرقاء العامرية	العصر الأموى	الجزيرة العربية
١٣	سلامة القس	العصر الأموى	المدينة – الشام
١٤	حبابة	توفيت سنة١٠٥هـ	البصرة
١٥	متيم الهاشمية	توفيت سنة٢٢٤هـ	البصرة
١٦	رحاص	توفيت سنة٢٤٥هـ	بغداد
١٧	محبوبة	توفيت سنة٢٤٧هـ	العراق
١٨	فضل جارية المتوكل	توفيت سنة٢٥٧هـ	بغداد
١٩	ام أسيه القابلة	الدولة الطولونية	مصر
٢٠	أم أحمد القابلة	العصر المملوكى	مصر
٢١	أخت أبي بكر بنت زهر وابنتها	الدولة الموحدية	الأندلس
٢٢	جارية أبى عبد الله الكتان	الوفاة فى القرن٥هـ	المغرب العربى
٢٣	أم الحسن بنت القاضى	موجودة سنة٧٥٠هـ	الأندلس
٢٤	ابنة شهاب الدين الصائغ	موجودةسنة١٠٣٦هـ	مصر

من عرض العصر الذى عاشت فيه الطبيبات ومكان ميلادهن أو إقامتهن نجد أن معظم الطبيبات كن ينتمين للعصر الإسلامى الأول – عصر الرسول والصحابة – فثمان نساء من أربع وعشرين عشن فى عصر الرسول والصحابة، أما الباقيات عشن فى عصور متفرقة مثل العصر الأموى والعباسى والطولونى والمملوكى والموحدين فى المغرب والأندلس. ونلاحظ أيضا من هذا الجدول أنه باستثناء المدينة مقر إقامة الطبيبات الأوليات ليس هناك بلد واحد أو مدينة واحدة اشتهرت بظهور الطبيبات بين أهلها أكثر من غيرها فتوزيع الطبيبات – بالجدول – على البلاد الإسلامية جاء بنسب متساوية تقريباً.

ويعد وجود معظم الطبيبات فى الفترة الإسلامية الأولى دليلا على تشجيع الرسول والمسلمين الأوائل للمرأة على العمل فى هذا المجال فأبلت المرأة بلاءً حسناً فى صناعة الطب ومداواة الجرحى الأمر الذى أخذ فى التقلص مع مرور الزمن حتى أننا كما هو واضح من الجدول لم نستطع حصر أكثر من اسم أو اسمين لطبيبات مشهورات فى كل عصر من العصور التى تلت، ولكن يمكن القول أن دور المرأة لم يختف اختفاءً حقيقياً بقدر ما تقلصت كتابات المؤرخين عن المرأة وتسجيلهم لدورها وحياتها ، فلا نعتقد أن نمط التأريخ المتناقص كما هو واضح فى نموذج الجدول يتطابق تطابقاً تاماً مع الواقع. وقد أبدى المؤرخون الأوائل استعداداً كبيراً لتسجيل عدد كبير من النساء وأعمالهن وكل جوانب حياتهن ليكن مثالاً تحتذى به النساء فى العصور التى تلت بينما لم تحظ النساء المتأخرات بنصيب عادل فى التأريخ بسبب التباين حيث كان الاتجاه العام للمجتمع هو عزلهن وتجنب الحديث عن أعمالهن كرد فعل أو خوفا من التسيب الأخلاقى والتحرر من العفة الذي تحدثنا عنه من قبل.

جدول رقم (٣)

م	الطبيبات	التخصص	المكانة الاجتماعية
١	رفيدة الأسلمية	جراحة حروب	من المسلمات الأوائل وصاحبة أول مستشفى فى الإسلام
٢	الربيع بنت معوذ الأنصارية	جراحة حروب	من المسلمات الأوائل المبايعات للرسول عند الشجرة
٣	أمية بنت قيس الغفارية	جراحة حروب	من المسلمات الأوائل
٤	سلمى أم رافع مولاة الرسول	جراحة حروب	مولاة رسول الله (ص)
٥	معاذة الغفارية	جراحة حروب	من المسلمات الأوائل
٦	كعيبة الإسلامية	جراحة حروب	من المسلمات الأوائل
٧	ليلى الغفارية	جراحة حروب	من المسلمات الأوائل
٨	أم العلاء الانصارية	تمرض المرضى (غير محدد)	من المسلمات الأوائل المبايعات للرسول
٩	أم عطية الأنصارية	الكحالة	من المسلمات الأوائل
١٠	فريدة الكبرى	مولدة - أمراض نسا	جارية
١١	زينب طبيبة بنى أود	الكحالة	كانت طبيبة مشهورة وذائعة الصيت بين العرب
١٢	خرقاء العامرية	الكحالة	إحدى نساء بنىعامر بن ربيعه، شاعرة وعارفة بالأدب والغناء
١٣	سلامة القس	مولدة - أمراض نسا	جارية وشاعرة ومغنية
١٤	حبابة	مولدة - أمراض نسا	من جوارى الخليفة الأموى
١٥	متيم الهامشية	مولدة - أمراض نسا	جارية وشاعرة وعارفة بالأدب والغناء
١٦	رحاص	مولدة - أمراض نسا	جارية ومغنية
١٧	محبوبة	مولدة - أمراض نسا	جارية وشاعرة
١٨	فضل جارية المتوكل	أمراض نسا	جارية الخليفة المتوكل العباسى وشاعرة
١٩	أم آسية القابلة	قابلة - أمراض نسا	قابلة أولاد السلطان خمارويه
٢٠	أم أحمد القابلة	قابلة - أمراض نسا	اشتهرت لأنها كانت تقبل لوجه الله
٢١	أخت أبى بكر بنت زهر وابنتها	أمراض نسا	أخت طبيب مشهور وكانت تعالج نساء الخليفة الموحدى
٢٢	جارية أبى عبد الله الكنانى	علم الطبائع والتشريح	جارية
٢٣	أم الحسن بنت القاضى	فنون من الطب (غير محددة)	ابنة قاض مشهور
٢٤	ابنة شهاب الدين الصائغ	لم يحدد تخصصها	تولت مشيخة الطب

نلاحظ من الجدول السابق أن النساء بصفة عامة تخصصن فى ثلاث مجالات: جراحة الحروب، القبالة وأمراض النساء، والكحالة وأمراض العيون. فهناك سبعة طبيبات من أربع وعشرين تخصصن فى جراحة الحروب بينما إحدى عشرة اشتغلن بأمراض النسا والولادة فى حين أن اثنتين فقط عملتا فى مجال العيون وأربعة طبيبات لم تحدد تخصصاتهن. وفى كل واحد من هذه التخصصات كان يعتمد على المرأة لكى تشفى مرضاها وتخفف عنهم آلامهم. فمن أهم الممارسات التى قامت بها النساء فى جراحة الحروب كان تطهير الجروح والمحافظة على نظافتها ووقف النزيف. وقد كانت هناك عدة أساليب تلجأ إليها المرأة الطبيبة لوقف النزيف مثل استخدام الصوف المحروق والضغط به كرباط على الجرح كما كن يلجأن أيضاً لأسلوب الكى لوقف النزيف.[1] هذا كله فضلاً عن قيام النساء بإخراج السهام من جرحى الحرب وهو أمر شاق للغاية، غير أن المرأة أثبتت وعياً وحسن تصرف فى عمليات إخراج السهام هذه فقد ذكرت لنا المصادر كيف أن رفيدة الأسلمية عندما رأت سعد بن معاذ قد أصابه سهم فى صدره تصرفت بحكمة ووعى فأسرعت بإيقاف النزيف ولكنها أبقت السهم فى صدره لأنها كانت تعلم أنها إذا سحبت أو أخرجت السهم سيحدث نزيف لا يتوقف فى الجزء المقطوع.[2]

أما بالنسبة لأمراض النسا والقبالة فقد ذكرت لنا بعض المصادر وصفاً للممارسات التى كانت تقوم بها المرأة الطبيبة المتخصصة فى هذا المجال فوصف لنا ابن الداية فى كتابه المكافأة وحسن العقبى كيف أن قابلة أولاد خمارويه كانت تمسح جوف الحامل وتنتظر حتى يأتيها المخاض فتجلسها على كرسى الولادة التى كانت تتم عليه الولادة بسهولة،[3] هذا كله فضلاً عن العمليات المعقدة التى

---

[1] اللبيدى، تاريخ الجراحة عند العرب، ص٢٢٨.

[2] أحمد بن على بن حجر العسقلانى، الإصابة فى تمييز الصحابة، تحقيق على محمد البجاوى، (مصر: مكتبة نهضة مصر، بدون تاريخ)، ق٤، ص١٨٣٨.

[3] أحمد بن يوسف الكاتب ابن الداية، كتاب المكافأة وحسن العقبى، تحقيق محمود شاكر، (طبعة ؟، ١٩٤٠)، ص١٣٧-١٤٠. وقد صف ابن الداية فى كتابه هذا كرسى الولادة وذكر أنه كان من أهم مستلزمات الولادة فى

كانت تقوم بها القوابل والتى سنتحدث عنها بالتفصيل فيما بعد مثل عملية إخراج الحصاة من النساء. وقد تدربت القوابل تدريباً جيداً على أيدى كبار رجال الطب مثل الزهراوى وتعلمن استخدام الأدوات الجراحية مثل المشداخ الذى يشد به رأس الجنين أو المدفع الذى يدفع به الجنين وكذلك اللولب الذى يفتح به فم الرحم.[1] أما عن الكحالة وطب العيون فالطبيبتان المذكورتان فى الجدول لم تذكر لنا المصادر أن أية واحدة منهما قامت بجراحات فى العيون ولكنهما عالجتا مرضاهما بالقطرات التى اشتهرتا بتركيبها.[2]

وإذا انتقلنا بعد ذلك للجزء الثانى من الجدول الخاص بمكانة الطبيبة الاجتماعية سنجد أن معظم الطبيبات اللاتى تم حصرهن كن ينتمين بطريقة أو بأخرى الى الحكام أو الصفوة. وهذا الأمر يثبت أن المؤرخين اهتموا فقط بأخبار هؤلاء المشهورات من النساء مما يجعلنا نقول أنه كان هناك بالطبع عدد أكبر من الطبيبات اللاتى لم ينلن حظ إدراج أسمائهن فى كتب التاريخ بسبب بعدهن عن "الخاصة" وارتباطهن بـ "العامة"، والدليل على ذلك وجود ثلاث طبيبات فقط من الأربع والعشرين طبيبة المعنيات، لم يرتبطن بالسلطة أو الصفوة، ولكن نلن شهرة بسبب براعتهن فى المهنة: زينب الأودية وخرقاء العامرية وأم أحمد القابلة.

كذلك ومن اللافت للنظر فى الجدول السابق وجود عدد كبير من الجوارى اللاتى تخصصن فى مجال أمراض النسا وكن مولدات مما يغير فى أذهاننا الصورة النمطية للجارية كرمز للمتعة واللهو فقط. حيث إن معظم هؤلاء المولدات كن أيضا عارفات بالأدب والفنون. وخير مثال على ذلك جارية الطبيب أبى عبد الله الكنانى التى وصفها

العصور الإسلامية الأولى والوسيطة أن كل داية أو قابلة كانت تملك مثل هذا الكرسى ترسله الى بيت المرأة الحامل قبل أن تذهب هى.

[1] Sami Khalaf Hamarnah and Glenn Sonnedecker, A Pharmaceutical View of Abulcasis al-Zahrawi in Moorish Spain, (Leiden: Brill, 1963), pp. 52-54.

[2] ابن أبى أصبعية، عيون الأبناء، ص١٨١.
أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، شرحه وكتب هوامشه عبد على مهنا وسمير رجب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢)، ط٢، ص٤١-٤٧.

ابن عذارى بقوله: "لم ير فى زمانها أخف منها روحاً ولا أسرع حركة ولا ألين عطافاً ولا أطيب صوتاً ولا أحسن غناء ولا أجود كتابة ولا أجود خطاً ولا أبدع أدباً ولا أحضر شاهدا مع السلامة فى اللحن فى كتبها وغنائها لمعرفتها بالنحو واللغة والعروض إلى المعرفة بالطب وعلم الطبائع ومعرفة التشريح وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان."[1] ومعنى ذلك أنها نبغت فى علوم اللغة والأدب والشعر إلى جانب العلوم الطبية والتشريح.

النساء والعمل العام:

بعد عرض وتحليل مضمون الجداول نلقى الضوء على بعض النقاط المتعلقة بالموضوع بوجه عام؛ فمثلاً نلاحظ ارتباط نشاط الصحابيات أثناء عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى مجال التمريض والتطبيب بميادين القتال والغزوات حين كن يخرجن كمقاتلات وساقيات وآسيات،[2] يحاربن ويقتلن الأعداء، يناولن السهام على سبيل الإعانة فى خضم رحى المعركة، ويسقين القوم، و"يغزلن" الشعر الحماسى لتشجيع المحاربين فى الصفوف، ثم يداوين الجرحى ويمرضنهم أو حتى يقمن بدفنهم ونقل الجثث فى آخر الأمر. أى أن هؤلاء النساء الصحابيات كن مجاهدات بحق، تواجدن فى كافة مراحل ومجالات الجهاد من أوله حتى آخره. نجدهن فى كل مكان يقمن بكل هذا فى نفس الوقت، يشاركن فى أى نشاط موجود على الساحة يعين الأمة فى كفاحها ويقمن بما لزم لدفع ونصرة المسلمين. فى هذه المرحلة المبكرة لم يتم إقصاؤهن أبداً عمداً أو الحد من حركتهن بأية حجة من الحجج، بل استفاد مجتمع المسلمين من قدراتهن المتنوعة وتكبدهن لأنواع المشاق من هجرة وارتحال وغزو ... وخلافه. ومن هذا المنطلق، وفى هذا السياق المتكافئ نسمع أول ما نسمع عن

---

[1] أبو العباس بن عذارى، البيان المغربى فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق لافى بروفنشال، (باريس: بولس جنتر، ١٩٣٠)، ص٣٠٨.

[2] وجدنا كلمة "آسى" فى لسان العرب بمعنى (طبيب) وهى الكلمة المستخدمة فى كثير من المصادر إشارة إلى هؤلاء المجاهدات الصحابيات.

طبيبات التاريخ الإسلامى. وهذه نقطة هامة لأن الملاحظ هو اختفاء الفصل الصارم فى هذه المرحلة بين المجالين العام والخاص، أو تقنينه وتجميده بحيث يصبح الانتقال من حيز إلى آخر بمثابة خرق أو تخطٍ لهذه الحدود الفاصلة، بل نلاحظ عدم وجود هذا الاستقطاب الذى أدى بعد ذلك إلى وضع قيمة أعلى على العمل العام الخارجى وتخصيصه لفئة واحدة من المجتمع على حساب أو فى مقابل – ما سمى بعد ذلك – بالخاص المتوارى عن العيون والمخصص تحديداً لفئة أخرى. إن تداخل الخاص والعام فى هذه المرحلة المبكرة يشى بأن المقياس الوحيد الذى كانت تقاس به الأعمال فى مجموعها هو أن "يحسن" الإنسان – أى يجوّد ويتقن – ما يفعله.

سنتوقف عند بعض النماذج والأمثلة التى قابلتنا فى تراجم هؤلاء المسلمات الأوليات ونتأمل دلالتها وتواتر أدلة وتفصيلات معينة تخص عملهن ونظرة المجتمع لهن. نقل لنا ابن الأثير على لسان أم علاء الأنصارية، وهى من المبايعات، أن الصحابى عثمان بن مظعون عندما سكن عندهم من ضمن من سكن من المهاجرين عند الأنصار واشتكى علة من العلل، "مرّضناه حتى إذا توفى أدرجناه فى أثوابه". وجدير بالملاحظة أن التى تقوم بالرواية والتى أخبرت عن ما حدث فى المنزل من مرض وتمريض ووفاة ودفن هى أم علاء التى تتحدث بصيغة الجمع بما يفيد اشتراكها – ربما مع بقية نساء المنزل – فى "تمريض" عثمان، وهذا يدل على اعتياد النساء فى ذلك الوقت أو خبرتهن فى ممارسة التطبيب وعلاج الآلام والأمراض. ونستنتج أن التمريض فى هذه السياقات وفى ذلك الوقت ليس المرادف/ أو لا يتطابق مع مفهومنا الحديث للتمريض الذى يحتل المرتبة الثانية فى المداواة فنفصل بينه وبين ممارسة الطب؛ بل هذا التعبير يفيد بأنه كان أقصى درجات العلاج المعروفة فى ذلك الحين عن طريق استخدام كل الوسائل والأدوية والإمكانات المتاحة. ما يهمنا هو الانطباع الذى يتولد لدينا عند الإطلاع على هذه المصادر أن العلاج – فى مراحله الأولى هذه فى المجتمع المسلم الأول – كان يُفهم على إنه من اختصاصات النساء أو من فنونهن وقدراتهن الخاصة. وقد كثر الحديث كذلك عن اشتغال العدد الأكبر من النساء أثناء القتال "بمداواة الجرحى" و"نزع السهام" وما يتبع ذلك من تضميد للجروح ووقف النزيف وأحياناً البتر

والكى واستخدام الحناء والمراهم للقروح وغيره، كما سبق شرحه فى تحليل الجداول عن طب جروح الحرب. فنستنبط من هذا كله أن مهام المسلمات المجاهدات الأوليات كانت تتراوح بين الإسعاف المباشر في ساحة القتال وسط الخيل والمبارزة والسهام والنبال، إلى نقل أصحاب الجروح الكبيرة والنزف إلى الخطوط الخلفية فى الخيم للعلاج، ثم إلى نقل الجثث على الجمال ودفنهم.

وفى ترجمة أم زياد الأسلمية المجاهدة تقول إنها والنساء خرجن و "معنا دواء للجرحى"، أى أنه كان فى حوزتهن أدوية وعقاقير خاصة ركبنها واستخدمنها فى الجروح وتسكين الآلام. وهذا يذكرنا بسلمى أم رافع – مولاة رسول الله – التى كان الرسول يقصدها لتداوى قروحه بالحناء. فمنذ البداية تعاملت النساء المسلمات مع تركيب الدواء بغرض العلاج والتطبيب، حتى سمعنا بعد ذلك عن مزيد من الطبيبات يستخدمن قطرات أو كحل أو مراهم.

كان من الطبيعى إذاً أن تقيم رفيدة الأسلمية زمن الرسول أول عيادة أو مستشفى فى الإسلام، والتى اشتهرت بـ "خيمة رفيدة"، أقامتها فى مسجد الرسول وكانت تداوى الرجال والنساء معاً فى وقت السلم والحرب. فمثلاً عندما أصيب الأنصارى المحارب سعد بن معاذ بسهم فى غزوة الخندق أشار الرسول لأصحابه "انقلوه إلى خيمة رفيدة". وهناك مكث مع رفيدة وصاحباتها حيث أسعفنه ومرضنه، ثم اضطرت رفيدة في آخر الأمر أن تكوى الجرح لإيقاف النزيف، وكان الرسول يزوره هناك كل يوم. وكانت رفيدة تصحب المسلمين فى غزواتهم لهذا الغرض ومعها فريق من نساء الصحابة والمتدربات على الإسعاف والعلاج. وما يعنينا هنا هو مغزى هذه الواقعة المسجلة والتى لم يستغرب لها أو يستنكرها المسلمون الأوائل: أن تطبب امرأة المجتمع المسلم الموجود حينذاك وأن تكون فى موقع الصدارة بينهم أو التفوق المهنى على رجال الأمة، فتتبوأ الإشراف والإدارة ولو من خلال هذا الشكل الابتدائى البسيط (بالنسبة لنا الآن فى الوقت الحالى). كانت رفيدة ومن عملن معها من المؤمنات المجاهدات جزءاً لا يتجزأ من العمل العام والجهاد الشامل لمصلحة الأمة وخدمة رجالها ونسلئها، ولا يفوتنا أن نلحظ مقدار الثقة الموضوعة فى كفاءة هذه المرأة فى أمر خطير يتوقف عليه حياة المسلمين ومستقبلهم مثل علاج

المحاربين، فمن الواضح أن المقياس أو القاعدة التى أرساها الرسول فى مجتمعه الأول هو تقدير الخبرة والمقدرة المهنية.

المرأة المسلمة المعترفة/ المهنية:

ومع تقلص دور النساء الفعال فى الحرب والقتال وبالتالى فى الإسعاف المباشر للجرحى، نجد ذكرهن يأتى بعد ذلك وعلى الأخص فى مجالات القبالة (التوليد وأمراض النساء) والعيون. فيصادفنا استخدام كلمة "طبيبة" لأول مرة فى المصادر عند ذكر زينب طبيبة بنى أود ثم أم الحسين فى معرض ترجمة أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الطنجالى الذى قرأ صناعة الطب وقد رأى المؤرخ ابن حجر أن تكون تتمة التعريف به عن طريق التعريف بأنه والد "الطبيبة الأديبة"، التى يبدو أنها أيضا كانت ذات شهرة وصيت؛ أما جارية الطبيب أبى عبد الله الكنانى فقد مدحها المؤرخ وفيما أثنى عليها "معرفتها بالطب وعلم الطبائع ومعرفة التشريح وغير ذلك مما يقصر عنه علماء الزمان."

هكذا أدت المعرفة والثقافة العلاجية والطبية بالنساء إلى الممارسة الفعلية للتطبيب والعلاج خاصة كما ذكرنا فى مجالى القبالة والعيون (وإن لم يقتصر كل عمل الطبيبات على هذا فقط). ويؤكد المؤرخ فى ترجمته لزينب الأودية أنها "عارفة بالأعمال الطبية" من ناحية و"خبيرة بالعلاج" من ناحية أخرى، أى أنها جمعت بين المعرفة والتطبيق. ومرة أخرى مثل الحال مع رفيدة، تثبت الواقعة المسجلة أن زينب كانت طبيبة عامة تداوى الرجال والنساء دون استنكار أو حرج. ونقرأ فى الطبرى إشارة إلى "متطببة" عالجت جرحاً لامرأة فى كتفها وأعطتها مرهماً مما يدل على وجود مجموعات من النساء حتى ذلك الوقت كانت لا تزال تعالج جروحاً رغم انتهاء زمن اشتراك المسلمات فى الجهاد.

ونلاحظ أن شئون القبالة وأمراض النساء كانت تعتبر فرعاً أو "فنا" (الكلمة المستخدمة فى المصادر) من فنون الطب الممارس فى ذلك الوقت، وعندما تطور لقب "القابلة" أو "المولدة" إلى "داية" عرفنا مؤرخين للطب باسم "ابن الداية" مثلاً الذى كتب كتاباً عن أخبار

الأطباء، أى أنها كانت مهنة رسمية معروفة يعتد بها فى المجتمع وممكن أن تستخدم كلقب أو كنية للبعض فى انتسابهم لمهن أمهاتهم أو أخواتهم أو بناتهم مثلا. وفى هذا المضمار نلاحظ استخدام لفظ "تطبيان" فى الإشارة إلى عمل أخت الحافظ أبي بكر بن زهر وابنتها اللتان كانتا تعالجان وتقبلان نساء المنصور. إلا أن المعالجات للنساء فى أمور التوليد وخلافه كان أيضاً يندرج تحت عملهن وتدربهن علاج حالات أخرى مثل المثانة والمسالك البولية واستخراج الحصوات، فكن بذلك طبيبات لتخصصات عدة فى نفس الوقت، وقد وصف الزهراوى عملية إخراج الحصاة من النساء عن طريق الفرج فيقول أن القابلة كانت تفتش على الحصاة بعد أن تضع يدها اليسرى على المثانة وتعصرها عصراً جيداً ، فإن وجدتها فينبغى أن تدرجها عند فم المثانة الى أسفل مبلغ طاقتها حتى تنتهى الى أصل الفخذ ثم تشق عليها عند قبالة نصف الفرج عند أصل الفخذ.[1]

وتفيد المعلومات التى وصلتنا عن القوابل حتى العصر المملوكى أنها كانت مهنة تتكسب منها النساء ويأخذن الأجر عنها (مثل مهنة المحدثات مثلاً)، والاستثناء المذكور فى السخاوى عن أم أحمد القابلة التى كانت تسكن بالمقطم فى مصر وهى أنها لم تأخذ أجرة عن قبالتها تطوعاً بعملها يؤكد القاعدة المعمول بها وهى الاحتراف، ويلفت النظر إلى استغراب السخاوى أو اعتباره أنه شئ غير علدى أن تعمل أو "تعانى" أى تمتهن هذه المهنة بدون أجر. كان للقوابل وسائل معروفة وأدوات خاصة يستخدمنها وينقلنها معهن مثل كرسى الولادة كما ذكرنا الذى ورد ذكره أيضا فى رواية على لسان أم آسية قابلة أولاد خمارويه بن طولون، والتى حكت عن تجربتها الأولى فى هذا المجال واستخدمت تعبيرات مثل "حذق صناعة ولطف فى مهنة"[2] بمعنى البراعة والدقة المطلوبتين فى هذه الممارسة، وشرحت كيف كانت تضع يدها على "جوف" أى بطن المرأة للإعانة على المخاض إلى آخره، مما يفيد بأن هذا العمل كان ينظر إليه على أنه احتراف ويستلزم قدراً من المهارة والخبرة التخصصية، ومن الواضح أن كلمة "صناعة" هى المرادف لـ "مهنة".

---

[1] اللبيدى، تاريخ الجراحة عند العرب، ص١٨٢.
[2] ابن الداية، كتاب المكافأة وحسن العقبى، ص١٣٧-١٤٠.

أما ابنة شهاب الدين بن الصائغ التى تولت مشيخة الطب بدار الشفاء المنصورى بعد والدها، فهذا مثل لطبيبة لم يقتصر نشاطها على ممارسة الطب فقط بل تولت رئاسة أطباء عصرها وبلدها، فالمشيخة هى المعادل لنقابات المهن فى العصر الحالى، أى أنها تولت نقابة الأطباء فى الإشراف على ممارسى المهنة وتحمل المسئولية أمام المحتسب الذى كان من عمله مراقبة المهنيين كما ذكرنا سابقاً فى الحديث عن مهام المحتسب. أى أنه كان منصباً علمياً وقيادياً فى نفس الوقت يستلزم المعرفة "بصناعة الطب" وقواعد وأخلاقيات ممارسة المهنة والإشراف على الأطباء.

الخطاب التأريخى:

الملاحظ فى ما سبق أنه على الأقل لم يكن مستغرباً أو مستنكراً تواجد واشتراك النساء فى مجالات متنوعة من التطبيب وخلال مراحل تطوره بدءاً من التمريض والإسعاف، إلى أمراض العيون، إلى الجراحة والعلاج، إلى القبالة؛ أو أن يكون نشاطهن على أى مستوى عام يتراوح من المعرفة وحضور مجالس الأطباء إلى الممارسة والخبرة إلى الإشراف والاحتراف. وحتى إذا قلنا إن المؤرخين القدامى قد ضنوا بإفراد مساحات أكبر وتراجم شافية منفصلة للنساء المشتغلات فى هذا المجال، فعلى الأقل لا يوجد فى هذا القليل المدون نبرة استهجان صريحة تسود خطاب التأريخ نفسه، أولا نلمس فى أسلوب الروايات مثلا أى دهشة مثل التى قد تعترينا فى الوقت الراهن أن طبيبة طلبت من مريض أن يضطجع لتداوى عينيه من رمد أصابه (الواقعة المروية عن زينب الأودية). لابد أن الراوى لم يشعر أن الواقعة بحاجة إلى شرح وتبرير فى سياقها المهنى الطبيعى – وسنعود إلى هذه النقطة بالتحديد عند مقارنة أسلوب القدماء فى الرواية بأسلوب بعض الكتّاب المحدثين.

ونعود لنسأل السؤال مرة أخرى: لما التناقص التدريجى فى التاريخ للنساء فى الثقافة الإسلامية، وهل هذا يعكس فعلاً عدم مشاركتهن على الإطلاق فى الحياة العامة؟ قلنا سابقاً إنه ليس بالضرورة أن نستنتج غياب النساء الكامل من مجال الطب مثلاً، فحتى

لو رصدنا طبيبة واحدة أو اثنتين فقط ذكر سريعا أنهما عملتا فى مستشفى فليس معنى هذا أنهما ظهرتا فجأة دون سابقة ودونا عن غيرهن من آلاف النساء على مدى قرون، فمن المؤكد أن هذه علامة تدل على وجود تراث سابق أو سياق معين: أى سلسلة متواصلة من التطور سمح لهذه الطبيبة بالتواجد والممارسة المهنية فى هذه اللحظة التاريخية بالذات. المشكلة الرئيسية إذا تكمن فى تقصير التوثيق التأريخى، حتى لو سلمنا بأنه لو كان أتيح للنساء فى المجتمعات الإسلامية فرص متكافئة تماما فى التعليم والتدريب والممارسة لشهدنا تطورا أبرز لإمكانياتهن وقدراتهن.

مر بنا من قبل الآراء القائلة: (أ) بأن معظم مؤرخى التاريخ الطبى مثلا اهتموا بتدوين أطباء الخاصة أو من قرب من السلطة وصفوة المجتمع؛ (ب) أو أنهم صبوا اهتمامهم على الإسهاب فى التأريخ للنساء الأوليات من الصحابيات أو التابعيات فقط كقدوة ونموذج أخلاقى يحتذى به فى عصر تفشى فساد الأخلاق فيه؛ (ج) أو أن هذا التجاهل كان رد فعل للحد من ظهور وفاعلية النساء فى جنبات الحياة المختلفة وعدم الرغبة فى الاعتراف بذلك والتأكيد عليه فى السجلات الرسمية للتاريخ. وهذا الرأى الأخير يرتبط بتفسير تقدمه الكاتبة ليلى أحمد التى تضيف بعدا تحليليا إلى الموضوع عندما تلفت نظرنا أنه بعد الفترة الأولى من المجتمع الاسلامي توقفت النساء عن إنتاج "مادة نصية"[1] مباشرة تكون جزءا من التراث الثقافى بسبب تدهور مفهوم التكافؤ بين الجنسين والتوزيع غير العادل للقوة والسيطرة على مقاليد أمور الجماعة أو داخل منظومة العلاقة نفسها بين النساء والرجال – وهو تعريف أشمل لعنصر "السياسة" المتحكمة فى العلاقات الإنسانية داخل المجتمع، ومعناه أن هذا العامل ينعكس بالسلب – اجتماعيا وثقافة – على حياة النساء وتوافر فرص التعليم

---

[1] Leila Ahmed, Women and Gender in Islam: Historical Roots of a Modern Debate, (Cairo: AUC Press, 1993), p.82.

والعمل وعلى الحياة الأسرية الكريمة العادلة.[1]

يقول هذا الرأى إذاً بتنامى – عبر التاريخ الإسلامى – مفهوم ضمنى عن دونية المرأة وتطور فرضيات وتصورات ثقافية معينة فى اتجاه مضاد للقيم التحررية ومنظومة التكافؤ الأصلية لرسالة الإسلام ونموذج الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فتشير ليلى أحمد مثلاً إلى المعادلة الذهنية المتسربة إلى كثير من كتب التاريخ بين "المرأة" و "الشىء" وليس المرأة الإنسان.[2] وفى سياق هذا التحليل نود أن نلفت النظر إلى أنه ما كان ضمنياً فقط فى خطاب القدماء أحياناً يصرَّح به فى الخطاب الحديث ونجده منطوقاً بالفعل وبإسهاب. فإذا كان القدماء لم يستطيعوا تجنب ذكر المرأة حين تبرز أو تتفرد فى علم أو مهنة فلم يكن تدوينهم مذيلا (أو لم يتبعوا التدوين بتذييل عن) بمفاهيم عن "طبيعة" المرأة و"عاطفتها" المفرطة المعوقة للتفكير المنطقى والعقلانى، ولم يكن وارداً الحديث عن التتميط المقنن لقدرات النساء المتواضعة.[3] ونضرب هنا مثلاً على هذه النوعية من الخطاب ببعض المطبوعات الحديثة التى تتخذ موضوعاً رئيسياً لها الفوارق النفسية والسلوكية والعقلية بين الرجل والمرأة فى "الدين الإسلامي" لتبيان القصور فى

---

[1] رجاء النظر إلى الكتابين الآتيين، وفيهما عرض وتنظير للاتجاهات الحديثة فى الدراسات التاريخية، حول إعادة قراءة التاريخ من وجهة نظر النساء:
Ann - Louise Shapiro, Feminists Revision History (Rutgers, 1994);
Joan Wallach Scott, Gender and the Politics of History (Columbia UP, 1988).

[2] Leila Ahmed, Women and Gender, p.85.

[3] أحيل القراء إلى مقالة د. هدى الصدة، "النماذج النمطية للمرأة فى الإعلام وأثرها على وعى النساء" فى هاجر ٦/٥، (القاهرة: دار نصوص، ١٩٩٨)، ص٤٥-٥٦؛ وهى دراسة هامة عن مفهوم النماذج النمطية واستخدامه للتعبير "عن علاقة قوى غير متوازنة بين مجموعتين من البشر" بحيث يتزايد التنميط عند المجموعة الأضعف أو المجموعة التابعة، كما يحول "ما هو تاريخى أو مجتمعى إلى خصائص طبيعية وأبدية" ص٤٩. وهذا بالضبط ما يحدث فى المطبوعة التى نعرضها هنا.

التفكير السليم و"حدة العاطفة وعدم القدرة على مقارعة الحجة بالحجة" وأن "سيطرة المرأة على العالم الخارجى محدودة لأنها لا تملك روح الثبات والصلابة والاستمرار فى أى مشروع عمل جدى"، ومن هنا كانت "ضرورة وقوف كل من الجنسين عند طبيعته، خاصة فى "أعمال حظرت على المرأة بحكم طبيعتها"،[1] وهكذا إلى آخر هذا الكلام المقصود به تبرير هيمنة فئة معينة على العمل العام الذى يكتسب فى هذا الخطاب قيمة أعلى من أى شئ آخر تفعلنه النساء وبعدا أعقد يصعب على المرأة، كما يقصر على حيز خارجى لا تطوله. مثل آخر يرد فى مقال حديث بعنوان "دور المرأة المسلمة فى الطب والمواساة"،[2] فالكاتب فى معرض حديثه عن المجاهدة الصحابية أم سنان الأسلمية التى أذن لها الرسول أن تخرج إلى الحرب إما مع قومها أو مع المجموعة المصاحبة للرسول وزوجته أم سلمة، يلحق تعليقا صغيرا عن أن "خروج المرأة مع الجيش بموافقة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وموافقة زوجها أو ولى أمرها ومن يتولى إمرة الجيش وأن يخلفها من يدبر أمور بيتها وأن تكون مع جماعة من النسوة ولا يسمح أن تكون مفردة." ونتساءل كيف استدل من الواقعة على كل هذه الشروط المسبقة؟ لماذا نجد أنفسنا اليوم فى حاجة إلى طرح هذه المحاذير والشروط والمبررات والمفاهيم التى لم تكن واردة أو غير ذى موضوع فى التأريخ القديم؟ هناك إذا تغييرات تطرأ على الخطاب التاريخى وهذا يعكس تغييرات تطرأ على التصور الثقافى ونظرة المجتمع، مما يؤثر بدوره على حياة الناس الفعلية وما يتاح لهم وما يمنع عنهم. ونتذكر هنا كلمات لملك حفنى ناصف (باحثة البادية، ١٨٨٦-١٩١٨) إذ تقول: "لو كنت ركبت المركب مع خريستوف

---

[1] عبد المنعم سيد حسن، طبيعة المرأة فى الكتاب والسنة، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٥)، ص٥٩، ٨٦.

[2] قام الأستاذ سعيد الديوه جى برصد بعض الأسماء للطبيبات فى مقالة مختصرة قدمت لمؤتمر الطب الإسلامى بالكويت سنة ١٩٨١، ولكنه لم يتطرق إلى تحليل السياق التاريخى الاجتماعى للفترة الزمنية التى عاشت فيها هؤلاء الطبيبات.

كولمب لما تعذر على أنا أيضا أن أكتشف أمريكا"[1] كذلك قولها "ومـــا أظن أصل تقسيم العمل بين الرجال والنساء إلا اختياريا، بمعنـــى أن آدم لو كان اختار الطبخ والغسل، وحواء السعى وراء القوت لكـــان ذلـــك نظاما متبعا الآن..."[2]

خاتمـة :

خلاصة القول، يتضح إذا أن الصورة المتكاملة للنســـاء فـــى المجتمعات الإسلامية الماضية أعقد بكثير مما نظن، فالنســـق القيمـــى الخاص بالإسلام وعرفه لم يمنـــع مـــن اشـــتغال النســـاء بـــالتدريس كمحدثات، أو بالعلوم الدينية كعالمات مفتيات وفقيهات وصوفيـــات، أو بالإدارة والعمل الاجتماعى كشيخات للربط والمساجد ومدارس القـــرآن، أو بالعلاج كطبيبات. ورغم هذا فإن التمثيل التاريخى لم يكن منصفـــا، وحتى عندما لم يجد المؤرخ غضاضة فى الثناء علـــى امـــرأة عندمـــا تبرع فى عمل تؤديه، فإن مـــيزان القـــوة والســـيطرة علـــى الأمـــور المصيرية ظل غير متوازن تماما وفى صالح فئـــة دون فئـــة، وظـــل يفرض نوعية من الخطاب يطل علينا أحيانا يخلـــق الأســـاطير حـــول شخصية المرأة وينال من إنسانيتها، ولا يأخذ فى الاعتبـــار الظـــروف المعيشية المفروضة عليها، أو يكتفـــى بتقريـــر الحقـــوق نظريـــا دون الاهتمام بتحقيقها وتيسير السبل إليها.

---

[1] ملك حفنى ناصف، النسائيات، الطبعة الثالثة، (القاهرة: ملتقى المرأة والذاكرة، ١٩٩٨)، ص١٣٥.

[2] المصدر السابق، ص١٣٤.

قائمة بأسماء المصادر والمراجع

المصادر العربية :

١- ابن أبى أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م).

عيون الأبناء في طبقات الأطباء، تحقيق د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة بيروت، بدون تاريخ.

٢- ابن الأثير : أبو الحسن على بن محمد الجرزى (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢م).

أسد الغابة تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور، (القاهرة: كتاب الشعب، ١٩٧٠).

٣- ابن بسام : محمد بن أحمد

نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق حسام الدين السلمرائى، (بغداد: مطبعة العارف، ١٩٦٨).

٤- ابن تيمية : أبو العباس أحمد (ت ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م).

الحسبة في الإسلام، (مطبعة المؤيد، ١٩٠٠).

٥- ابن جلجل : أبو داود سليمان بن حسان الأندلسى (ت: أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى).

طبقات الأطباء والحكماء، تحقيق فؤاد سيد، (القاهرة: مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للأثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٥).

٦- ابن الحاج : أبو عبد الله بن محمد بن محمد الصدرى الخامس المالكى (ت: ٧٣٧هـ / ١٣٣٦ م).

المدخل، (المطبعة المصرية بالأزهر ١٩٢٩).

٧- ابن حجر العسقلانى : أحمد بن على (ت ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م).

الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق على محمد البجاوى ، (مصر: دار نهضة مصر، بدون تاريخ).

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق سالم الكرنكوى، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٣) .

٨- ابن الداية : أحمد بن يوسف الكاتب (ت ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م).

كتاب المكافأة وحسن العقبى، تحقيق محمود شاكر (١٩٤٠).

٩- ابن سعد : محمد (ت ٢٣٠ هـ / ٨٤٥ م).

كتاب الطبقات الكبير، تحقيق إدوارد سخو، (ليدن: مطبعة بريل١٣٢١هـ).

١٠- ابن عبد البر : أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد (ت ٤٦٣ هـ/١٠٧٣ م).

الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق على محمد البجاوى ، (القاهرة: دار نهضة مصر، بدون تاريخ).

١١- ابن عذارى : أبو العباس

البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، اعتنى بنشره لافى بروفنسال، (باريس: بولس جنتر، ١٩٣٠).

١٢- الأصفهانى : أبو الفرج (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م).

الأغاني، شرحه وكتب هوامشه عبد على مهنا وسمير رجب، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢)، ط٢.

١٣- الجوزية : ابن القيم

الطب النبوى، تحقيق محمد فتحى أبو بكر، (القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٤)، ط٢.

١٤- السخاوى : أبو الحسن نور الدين على بن أحمد بن عمر بن خلف بن محمود (ت: ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م).

تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات، والتراجم والبقاع المباركات، صححه ورلجعه لفيف من العلماء، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٦).

١٥- الصفدى : صلاح الدين خليل بن أيبك (ت: ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م).

الوافي بالوفيات، (إستانبول: مطبعة الدولة، ١٩٣١) .

١٦- الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (ت: ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م)

تاريخ الرسل والملوك، (بيروت: مطبعة عز الدين، ١٩٩٢).

١٧- القفطى : جمال الدين بن يوسف بن ابراهيم (ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م).

أخبار العلماء بأخبار الحكماء، (القاهرة: مكتبة المتنبى، ١٩٨٤) .

١٨- المحبى : محمد أمين بن فضل الله

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر، (بيروت: دار صادر، بدون تاريخ).

مراجع عربية :

١- أسعد داغر — حضـــارة العـــرب، (القـــاهرة: مطبعـــة هنديـــة بالموسكى، ١٩١٨).

٢- عبد العزيز اللبيدى — تاريخ الجراحة عند العرب، (عمان: دار الكرمـــل للنشر والتوزيع، ١٩٩٢) .

٣- عبد المنعم سيد حسن — طبيعة المرأة في الكتاب والسنة، (القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٥).

٤- محمد حسين كامل — الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العـــرب، طبع على نفقة حكومة الجمهورية العربية الليبية.

٥- مرسى محمد العربى — لمحات عن التراث الطبى العربي، (الإســـكندرية، ١٩٧٥).

٦- يحيى شريف — تاريخ الطب العربي، (القـــاهرة: مطبعـــة ســـجل العرب، بدون تاريخ).

مقالات عربية :

سعيد الديوه جى : "دور المرأة المسلمة فى الطب والمواساة"، الطب الإسلامي (الكويت ١٩٨١)، تحقيق الدكتور عبد الرحمـــن عبـــد الله العوضي، ص ٨٠٦ - ٨١١ .

هدى الصده : "النماذج النمطية للمرأة فى الإعلام وأثرهـــا علـــى وعـــى النساء" فى هاجر ٦/٥، القـــاهرة: دار نصـــوص، ١٩٩٨، ص ٤٥-٥٦.

مراجع أجنبية :

1- Dols, Micheal. Medieval Islamic Medicine. University of California Press, California , 1984.

2- Goitein, S.D. A Mediterranean Society. Vol.1. University of California Press, California, 1971.

3- Ahmed, Leila. Women and Gender in Islam: Historical Roots of a Modern Debate. Cairo: AUC Press, 1993.

4- Hamarnah, Sami Khalaf and Sonnedecker, Glenn. A Pharmaceutical View of Abulcasis al-Zahrawi in Moorish Spain. Lieden: Brill, 1963.

5- Hamarnah, Sami Khalaf. Health Sciences in Early Islam. Vol. I & II. Texas: Zahra Publication, 1984.

6- Issa, Ahmad. Histoire des Bimaristans a l'Epoque Islamique. Le Caire: Imprimerie Paul Barbey, 1928.

7- Kharyallah, Amin. Outline of Arabic Contribution to Medicine. Beirut: American Press, 1946.

8 - Roded, Ruth. Women in Islamic Biographical Collections from Ibn Sa'd to Who's Who. Boulder & London: Lynne Rienner Publishers, 1994.

9- Scott, Joan Wallach. Gender and the Politics of History. Columbia UP, 1988.

10- Shapiro, Ann-Louise. Feminists Revision History. Rutgers, 1994.

11 - Siddiqi, Mohamed Zubayr. Studies in Arabic and Persian Medical Literature. Calcutta, 1955.

مقالات أجنبية :

Lutfi, Huda. "Al-Sakhawi *Kitab al-Nisa* as a source for the Social and Economic History of Muslim Women During the Fifteenth Century A.D." The Muslim World, LXXI (1981), pp. 104-124.

تعريف بالكاتبتين:

أميمة أبو بكر أستاذة بكلية الآداب، قسم إنجليزي، جامعة القاهرة، وعضوة بمؤسسة المرأة والذاكرة. لها مقالات في النقد الأدبي والأدب المقارن، متخصصة في كتابات العصور الوسطى وتكتب عن النساء في التاريخ الإسلامي والتصوف والكتابات الإسلامية التاريخية

هدى السعدي مدرسة بكلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة القاهرة فرع بني سويف، وعضوة بمؤسسة المرأة والذاكرة. تدرّس تاريخ الشرق الأوسط بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومتخصصة في دراسات التاريخ الإسلامي ومنهجه. كتبت رسالة الماچستير عن قواميس الأعلام الطبية في التاريخ الأسلامي، ورسالة الدكتوراه عن دولة بني رسول في القرن الثالث عشر الميلادى.

هل كانت هناك طبيبات احترفن مهنة الطب فى التاريخ الإسلامى؟ ولماذا التناقص التدريجى فى التاريخ للنساء فى الثقافة الإسلامية بصفة عامة؟ هل يعكس هذا فعلاً عدم مشاركتهن على الإطلاق فى الحياة العامة؟

تحاول الورقة الإجابة على هذه الأسئلة لتتبع تغيرات التى تطرأ على عمل النساء واشتراكهن فى مجالات الحياة المتنوعة، ولفهم تطور التشكيل الاجتماعى والثقافى لأدوار النساء والرجال فى الحقب الزمنية المختلفة.